اليوم الأخير في القرية

قصة بقلم محسن الخفاجي

أجلس الآن داخل سفينة تتحرك فوق نسيج الماء ، مبتعداً عن القرية التي لن أراها بعد الان ، والتي ستستحيل في خلفيةذاكرتي الى شاشة غائمة مجعدة . أصدقائي الذين شاركوني قبل اعوام فيالعمل هناك تركوني منذ فترة طويلة ، وذهبوا الى اماكن مختلفة ، غير عابئين بتوسلاتي . هكذا هم دائما . يجيئون ويذهبون ، دون ان يخلفوا اشارة تدل على وجودهم ، او اختفائهم . انني لست حزينا على الاطلاق. كذلك فان اعماقي خالية من اي شعور بالسعادة . وبحركة مضطربة اشعل سيجارة وادخن بانتشاء حتى تفغم انفي رائحة دخان كثيف ، وأنظر في الزاوية التي تصنعها يد المراكبي مع حافة السفينة ، فأرى بقعا شاسعة جرداء تثير في نفسي انقباضا حادا . اذ تبدو البيوت التي انوي الذهاب اليها ، تبتعد عني بمسافة طويلة . أميز شكلها المنصهر ، موزعا مع خضرة النخيل ، في اللحظةالتيتدخل فيها السفينة ممرا مائيا متفرعا . ان الحشائش التي تنحني في الماء ، والازهار البيضاء المنفتحة على سطح الماء ، تقبل نحوي في اتجاه مضاد مع حركة السفينة ، وقد أدرت ظهري لاكواخ القرية ، لكني ألتذ لمنظرها على البعد ، في كل مرة انظر اليها ، وهي تبدو مثل قوارب بيضاء مقلوبة وجافه . وبين لحظة واخرى تثقل حنجرتي بانفعال محموم هأنذا أبتعد عن القرية ، محتضنا حقيبتي السوداء بيدين ضعيفتين. لن اصدق ان اربعة اعوام قد مرت عليّ ،وانا هناك .شاب اعزبوغريب يكابد في العثور على حياة ذات اهداف حقيقية . ثمة ضوء يلتمع على مقدمة السفينة باشكال واضحة متغيرة كأصداف بيضاء ناصعة ، وحين كنت اغمس اصابعي في عمق الماء المتحرك ، احسست بدفقة هائلة من البرودة ، تتسرب بطيئا الى جسدي ، وسمعت وقع اقدام خفيفة على الشاطيء . كان المراكبي قد هبط لتوه بقدمين حافيتين ، واخذ يجر الحبل المعلق في عنق السفينة ويغني . قلت له بصوت مرتبك :

ـ لماذا نزلت ؟ لماذا تتعب نفسك من اجلي ؟

اجابني دون ان يتوقف عن جذب الحبل ، او يلتفت :

ـ الماء هنا ضحل ، لذلك نزلت . انني اؤدي عملي .

كان يبدو مقوس الظهر ، وهو يتقدم على الارض الرخوة بجهد طائر ضخم يهبط على الماء ، اثر طيران شاق . رفعت جذعي عن قاع السفينة ، وقلت :

ـ لديّ كثير من الوقت . لا يهمني الوقت .

قال المراكبي بصوت ضاحك :

ـ عد الى مكانك ايها الاستاذ . أرجوك ، لا تتدخل . سأعود الى السفينة عندما يصبح الماء عميقا .

عدت الى السفينة . تمددت داخلها . تملاني طمانينة اليفة ،وانا اتقدم بصحبة المراكبي جهة الشرق حيث تنتظرني المدينة الكبيرة ذات الشوارع المتربة . أهو الهواء الذي يسلم نفسه لي الان ، وهو يلدغ الجلد عند مروره برطوبته الخانقة ؟ ام المياه التي تنتشر فتحجب الافق حتى ان النوارس أخذت تحوم فيهيئة منحنيات غير مغلقة تطلق من مناقيرها المستدقة الاصوات الفزعة الموحشة ، وعندما اصغي قليلا أسمع نباحا متقطعا ، كأنه تلك الوحشة التي تثيرها ارض مليئة بأدغال هائجة لم تمر فيها اقدام بشرية من قبل ، وها انا وحيد في السفينة كما لو ان هناك ملايين الكيلو مترات تفصلني عن المراكبي اللاهث على الشاطيء تحت ضغط الحبل ، وفي استلقاءتي يخيل لي اني أرى اطفالا متماثلين في احجامهم وفي لون ثيابهم : احجامهمصغيرة مفلطحة ، وثيابهم متسخة باهتة اللون . يرمقونني بنظرات حائرة مستفهمة ، وشفاه نصف مفتوحة ومعتمة . يقول لي احدهم :

ـ إلى أين ستذهب، أيها الاستاذ ؟

أرفع امام عينيه ورقة بيضاء تمتلىء بحروف طباعية :

ـ لقد أمروا بنقلي . هذه هي الاوامر . انني انفذ اوامرهم ،ولا امانع .

ـ الى أين تذهب ؟ انك لم تجب على سؤالنا .

ـ حسنا . انني اذهب الى مكان لا اعرف موقعه بعد . ليست هناك خارطة مرسوم عليها مثل هذا المكان .

لا بد انه منفى ، ومن جهة اخرى فهو مكان ككل الامكنة . مليء بالبشر الذين سأجهد نفسي حتى اوجد لغة سهلة للتفاهم معهم .

ـ هل أنت حزين ، ايها الاستاذ ؟

ـ ربما .

ـ هل تشعر بالخوف ؟

ـ آه . كلا . لست خائفا . ما عدا انني اتساءل لماذا بعثوا بي الى هناك ؟

ـ ما الذي ستفعله هناك ؟

ـ دون شك ما كنت افعله هنا في كل يوم .

ـ قل لي ايها الاستاذ . هل انك لن تأتي الى هنا مرة اخرى ؟

ـ هذا مؤكد . سيصبح عسيرا عليّ ان اعود الى هنا .

ـ وما ذنبنا نحن ؟

ـ آه . سيبعثون لكم أستاذا جديدا . انها العادة . سيمر وقت ثم تعتادون عليه . وهكذا وهكذا .. والان اذهبوا الى بيوتكم .الشمس حارة جدا ومؤذية .

ـ كلا . لن نذهب . لقد جئنا لنودعك . الجميع ذهبوا لحصاد الرز ، ونحن قررنا ان نودعك .

ـ اشكركم . أشكركم جدا . والان وداعا يا أبنائي . وداعا .

يدير الاطفال وجوههم ، فأرى كل ثوب وهو مرتق في منطقة الظهر ثم يختفون ولا اكاد اراهم بوضوح حين يختفون في الاقاصي مثل أسماك صغيرة تسبح بلا اتجاه في مياه قذرة . وفي استلقاءتي ماخوذا بحركة السفينة اللينة فوق المياه الغائرة ذات النكهة الخاصة ، ارى الزوايا الغائبة للجذوع وهي ملطخة بضوء الشمس الغاتر . ارىاجزاء من جدران طينية قديمة لمنزل متهدم . وعلى البعد اميز مجموعة من طيور نظيفة الريش . ارى رؤوسها التي تنغمس فيالماء .مناقير تختفي واخرى تظهر لامعة بسبب الضوء تتحرك بشكل مباغت . اصغي الى صوت الريح في رؤوس الاشجار . اسمع تمزقها كتمزق قماش قديم . لقد رفعت رأسي قليلا عن الحقيبة ، واتكأت بمرفقي عليها لان الهواء كان قد تشبع برطوبة خانقة . لكن الماء كانمليئا بانعكاساتضوء أعمق من انعكاسات ظل السفينة على الماء وهو يتحرك بخفة بينالامواج. كانت الاوراق المرتجفة فوق الماء تستحيل في منطقة الظل الى اوراق معتمة وقاسية . مددت يدي في الحقيبة . وأخرجت مغلفا مليئا بالصور الفوتوغرافية . التقطت واحدة .كانت صورة اختي . متزوجة وتحب زوجها كثيرا . انجبت له ثلاثة اطفال ، فارضت غروره الابوي ،وبامكانها ان تنجب اطفالا اخرين لكنها انفقت من مصروفها على شراء علبحبوب منع الحمل . انني اضحك على هذه العلاقة الكاذبة . أخفيت صورة

اختي ، والتقطت بأصابع مرتجفة صورة اخرى . وحدقت في عينيها بامعان . لم يعد في استطاعتي رؤيتها . تاملت وجه الفتاة الثابت في الصورة خلال خيط الدخان الخفيف ، واقتنعت تماما بانها يائسة ومحطمة ،ومنذ الفجر كنت ما ازال دائخا الى حد بعيد بفعل نوم مرتبك. واسترجعت وجوه الجميع من اصدقائي الذين جاءوا الى هنا ، وذهبوا دون ان يبعثوا اليّ برسائل . قلت في نفسي : ما جدوى ذلك ؟ ربما نسوا هذه الحياة العنيفة التي أعيشها . ومن خلال الضوء القوي تاملت وجه الفتاة ، واشرت لها بذراعي قائلا :

ـ سأذهب في الساعة السابعة .

لم يكن وجهها بهذا الغضب كانت قد احست بالامتعاض نحوي، وغمرتني دفقة من احساس بارد ، فنهضت من مكاني على الكرسي من اجل ان اقهر الكسل الذي استحوذ كلية على قواي ، واحسست بعاطفة رقيقة تجاهها . توقفت عن النظر اليها ، ووقفت بصري فيما حولي. نافذة مفتوحة في غرفتي تشرف على الشارع الفسيح . انه شارع رئيسي في القرية ويؤدي الى المقهى الوحيد الذي اقضي فيه نصف وقتي، وتذكرت كم مر عليّ من الوقت وانا هنا . وقلت في نفسي :اربعة اعوام. اصبح عمري الان ثلاثة وعشرين عاما . هكذا انتهى كل هذا الوقت وساعود الى البيت . ينبغي ان اودع الجميع بحرارة .

اختلست نظرة عميقة الى الجدار . وقلت لا بد انها تغيرت كثيرا ، وبحركة سريعة ابتعدت عنها . قالت :

ـ في مدينتك ، هل ستتزوج ؟

ـ لست ادري . سأجرب البحث عن امراة ، وربما اهتدي اخيرا

ـ اعطني شيئا للذكرى .

ـ خذي أي شيء .. اي شيء .

ـ اعطني الكاميرا .

ـ الكاميرا ! انها لا تنفعك يا عزيزتي ..

ان وجهها يفصح عن حالة استسلام تام للانهيار ، بل اكثر من هذا ان كل شيء فيها يوحي بانها محطمة . وبعد ذهول طويل اجابت:

ـ ربما تعتقد انني لا أناسبك . انت مخطيء تماما .

تذكرت الليلة التي جئت فيها الى هذه الغرفة ، واستقبلتني فيها اصوات انثوية لعجائز ، وتذكرت حالتي النفسية ، وانا اصغي الى احاديثهن عني . لكن الفتاة تقدمت بخطوات قصيرة ووقفت قبالتي. شعرت برغبة قوية في احتضان كل شيء. كانت نظراتها متوترة جدا، وخلال الصمت أشفقت عليها . ارتحت لها ورجوتها ان تتفاءل . وانها ستعثر على رجل يشبهني . همست ببضع كلمات هادئة .

ـ جبنا ، ولكنني لا استطيع .

واستطعت أن ارى وجهها ، الذي كان مضطربا قليلا . شعرت بألم حاد ، ونكست رأسي . كنت اعرق بغزارة سألت بصوت مخنوق:

ـ متى ستذهب ؟

ـ في السابعة . ساركب سفينة الى المدينة .

هزت رأسها قائلة :

ـ ألم تعرف فتاة من قبل ؟

ـ ابدا .. لماذا تسالين ؟

تذكرت البائع الجوال ذا الصوت الاجش ، وصاحب المقهى،والارملة الخبازة ، والقرويات حين يتضاحكن في جوف العربات التي تجرها جياد قوية محملة بسلال البيض والدجاج ، وتاملت وجودي الشاذ بين أمرأتين لم اعرفهما من قبل . لم أكن اعرف سبب ذلك الذهول.

قلت بتألم : سأعود الى مدينتي . سأقضي يوما بأكمله في الطريق.

قالت بصوت واطيء : اعرف . اعرف .

اجبتها وانا ادير ظهري لها : انني آسف . ارجوك . يجب ان تعذريني . ماذنبي ؟

ارسلت الفتاة نظرة قلقة نحوي ، وراحت تحدق في الفراغ في حيرة .

ـ انت مضطرب .

ـ حسنا . لنناقش الامور بهدوء . انك لم تفعلي شيئا من اجلي، سوى ان تظلي جالسة تنظرين اليّ طول الوقت .

ابتسمت الفتاة ، وقالت بصوت رقيق :

ـ انك لست زوجي حتى تعاملني هكذا .

ضحكت بهدوء ، لم يكن في نيتي التوقف عن الضحك ، ثم سمعت صوتها حادا .

ـ اذن انت ذاهب لا محاله .

ـ بالتاكيد . ليس من مصلحتي ان امانع .

ـ يمكنك اذن ان تاخذ الصورة .

حاولت ان تتظاهر بانها غير عابئة لما حدث . ولكنها اخذت تبكي فلم أستطع ان اتخلى عن حضورها . وكنت قد قررت ان اجلس على حافة السرير لادخن ، واتركها تنتحب . وهي تحاول ان تتخلص من آثار الدمع . قلت بغيظ :

ـ اليوم الاخير في القرية . لم تأتك الشجاعة الا الان .

تاكدت ان البكاء قد زايلها . اخذت انظر اليها من جديد ، الى وجهها ، الى عينيها الجميلتين . كان امتعاض حاد يلمع في عينيها .ثم رايت وجهها يكتسي بحمرة خفيفة . ضحكت ضحكة عميقة يائسة ، ولكنها بقيت متصلبة ، وارتبت في ان تكون قد احبتني بهذه الدرجة . قالت وعيناها تلتصقان في وجهي بخشونة مفاجئة :

ـ الانني بنت خبازة ؟! انني اكرهك . اذهب الى مدينتك.

قلت في الحال :

ـ ابدا . لماذا تفكرين بانني من هذا الصنف ؟

ولا بد انها لم تكن تهيىء نفسها لكي تبحث عن رجل اخر سواي . لقد كنت اجلس على السرير بجوار النافذة ، دون ان يصدر عني اي صوت ، وكان المساء يهبط كمياه معتمة في الاركان ، وشبح الفتاة يلح عليّ ويعذبني .يمر امامي خفيفا عندما يتكاثف الدخان من حولي، فاتبين جسدها ، وهو يمد اليّ كفين لدنتين ، ينحدر من بينهما بطيئا رغيف خبز ساخن ليسقط بالقرب مني على حافة السرير .

حاولت ان اتقدم نحوها واهدئها ، لكنها صرخت :

ـ لا تلمسني . انني اكرهك .

كنت اعلم جيدا . انه ما من شيء اعمق من ان يكون هناك ناس تحبهم ، وقد واجهتني فلم اجبها ، وتقدمت نحوها ببرود . طرحت السيجارة ، وقلت ببطء :

ـ تريدين الاحتفاظ بالكاميرا ، وانت لا تعرفين كيف تلتقطين الصور .

شعرت بغضب عنيف . كان تاثير ذلك عظيما ، وقررت ان افعل شيئا . حاولت ان امسها ، وبدت لي معزولة عني ، فقد كان في غضبها نحوي شعور خاطيء ، وتملكني حذر شديد من توقع حدوث شيء مفاجيء.

كنت اسمع صوت تيار الامواج المتدافعة المتجهة صوب الشاطيء يتخلله صوت المراكبي الحزين . انه يغني . كانت هناك اصوات قد تتضح بين لحظة واخرى ، ومن الممكن ان يظهر اي شخص كان ويشاركني السفينة .في وضع ادنى قليلا من الوضع الذي احتله . كانت المياه المتدفقة تدخل في اعماق حجيرات الطين والامواج المنسحبة الى النهر، وهي تصطدم بأعناق الحشائش اثر مرورها المباغت . كنت على وشك ان اغمض عيني داخل السفينة ، واغفو قليلا غير عابيء بكل ماحولي عندما حلق طائر غريب النوع ، كان قد خرج آنذاك بغتة ، دون ضجة، من جهة الشاطيء .

اصبح الماء أكثر فاكثر انبساطا حتى لم يعد ، وقد انتشر في ثلاث جهات سوى سطح أزرق صقيل يرتعش تحت ريح خفيفة . رفعت رأسي فواجهتني بيوت المدينة . استسلمت لرائحة الماء ، وفكرت بالنهر، والطيور ، والشمس ، والمسافرين في انتظار قطار المساء الصاعد .

الناصرية ـ العراق

محسن الخفاجي